

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، بارئ الخلائق أجمعين، باعث الأنبياء والمرسلين، ثم الصلاة والسلام على سيدنا وحبیب قلوبنا أبي القاسم المصطفى محمد وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين الأبرار المنتجبين، سيما خليفة الله في الأرضين، واللعنة الدائمة الأبدية على أعدائهم إلى يوم الدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

سيكولوجية الشك والشكاكين

(٩)

قال الله العظيم في كتابه الكريم: (قَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ)^(١)
وقال الله العظيم في كتابه الكريم: (إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ)^(٢).

وقال الإمام علي صلوات الله عليه: ((الشكُّ على أربع شعبٍ على التماري والهول والتردد والاستسلام:

فَمَنْ جَعَلَ الْمِرَاءَ دَيْدِنًا لَمْ يُصْبِحْ لَيْلُهُ

وَمَنْ هَالَهُ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ نَكَصَ عَلَى عَقْبِيهِ

وَمَنْ تَرَدَّدَ فِي الرَّيْبِ وَطَطَّنَهُ سَنَابِكُ الشَّيَاطِينِ

وَمَنْ اسْتَسَلَّمَ لَهْلَكَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ هَلَكَ فِيهِمَا))^(٣).

من البصائر القرآنية:

هنالك مفردات ثلاثة تشكل دراستها وسبر أغوارها والعلاقة بينها إحدى الأسس العلمية الهامة لاكتشاف الكثير من أبعاد ظاهرة التشكيك وأسبابها، وهذه المفردات هي: (الشك، الريب، والتردد).

وفي الآيات الكريمة تكرر ذكر مفردتي الشك والريب مجتمعتين أحياناً ومنفصلتين أحياناً أخرى، كما وردت مفردة التردد في القرآن الكريم أيضاً.

معنى (فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ)

والتدبر في الآية الشريفة (فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ) يظهر جانباً من العلاقة بين الريب والتردد وذلك عند التأمل في معنى الآية الشريفة فان الآية تحمل معنيين:

تفسيران: التردد في الأمر، والتردد في الذهاب والإياب

الأول: ان المراد من التردد هو التردد في الأمر والتحير فيه.

الثاني: ان المراد من التردد هو التردد بالذهاب والإياب.

(١) سورة إبراهيم: آية ٩.

(٢) سورة التوبة: آية ٤٥.

(٣) السيد الشريف الرضي، نصح البلاغة، دار الهجرة للنشر - قم، ٤٧٣.

والريب هو المبعث للأمرين جميعاً.

شأن نزول الآية والمحمولات المتعددة في تفسيرها

ويوضحه شأن نزول الآية فان النبي صلى الله عليه واله وسلم عندما كان يأمر الناس بالجهاد، كان المؤمنون ينقادون فوراً ويستجيبون للنداء الإلهي، اما المنافقون فكانوا يحاولون التهرب من الجهاد بشتى الطرق ولذلك كانوا يأتون إلى النبي يستأذنونهم في القعود عن الجهاد حسب تفسير الآية الكريمة (إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) متذرعين بأعذار شتى قد يكون منها التعلل بمرض العيال أو التعلل بفساد محاصيلهم الزراعية لو سافروا للجهاد أو غير ذلك، فكانوا - حسب البعض كمجمع البيان - يترددون على النبي صلى الله عليه واله وسلم.

والمراد من (يترددون)، في بُعد آخر، أحد أمرين: أ- انهم كانوا يعمرون عليه ربما مراراً وتكراراً ويلحون في الطلب كي يأذن لهم بذلك ب- أو لعل المراد ب(يترددون) بلحاظ مجموعهم وإن كان كل منهم لا يتردد على النبي إلا مرة واحدة، ولا نستبعد وجود كلتا الحالتين.

ولقد كان مبعث ترددهم على النبي مستأذنين في القعود عن الجهاد هو ريبهم في أمر الرسالة وسوء ظنهم بأقوال الرسول إذ لم يكونوا مؤمنين بل كانوا منافقين يُظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، فهم يترددون على النبي صلى الله عليه واله وسلم في حالة ريبهم فيه، والريب هو الظنة بالشخص أو الشيء وسوء الظن فيه واتهامه، وهو قلق النفس واضطرابها، كما سبق تفصيله، وعلى هذا الأخير فمعنى الآية: انهم في حالة قلق انفسهم واضطرابها من الجهاد كانوا يترددون على النبي صلى الله عليه واله وسلم مستأذنينه في القعود عن الجهاد.

كما يحتمل ان يكون المراد من (يترددون) التردد في الأمر والتحير فيه - وهو التفسير الأول الذي صرح به بعض آخر من المفسرين كتفسير الصافي - أي انهم كانوا في حالة ريبهم في الرسالة والرسول مترددين في أمر الجهاد وصحة القرار وسلامته إذ كانوا يسيئون الظن به ويتهمونه صلى الله عليه واله وسلم بانه لا ينطلق في أوامر الجهاد من وحي إلهي بل من حب الرياسة والجاه والأنا - ونستغفر الله من حتى نقل قولهم - فكان ريبهم في الرسول هو مبعث ترددهم وشكهم في الحكم بالجهاد أو غيره أو كان قلق أنفسهم واضطرابها في أمر الجهاد هو مبعث ترددهم وشكهم.

ومن جهة أخرى: فانه يحتمل ان يكون المراد من (إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ) أي إنما يستأذئك المنافقون في الذهاب للجهاد (وهو عكس المعنى السابق: الاستئذان في القعود عن الجهاد) وذلك لأن المؤمنين كانوا إذا صدر الأمر الإلهي ينبعثون عنه فوراً ولا يتباطؤون أو يتشاقلون ولم يكونوا يستأذنون الرسول صلى الله عليه واله وسلم للذهاب للجهاد إذ انه قد أمرهم بالذهاب للجهاد فأبي معنى للاستئذان بعد ذلك؟ فهو نظير ان يستأذنونه في أن يصلوا أو يصوموا بعد أن أمرهم به!.

اما المنافقون فانهم رغم الأمر الإلهي بالجهاد، رغم ذلك كانوا يترددون على النبي صلى الله عليه واله وسلم يستأذنونهم في الجهاد علّه يأذن لهم فيتخلصون بذلك من مخاطره وأهواله، أو المراد المعنى الآخر وهو انهم في حالة ريبهم في أمر الرسول والرسالة كانوا يترددون في أمر الجهاد لذا كانوا يستأذنون في الذهاب لعلهم يحصلون على إذن لا يمكنهم لولاه التخلف عن

الجهاد لأنه أمر حكومي قانوني أيضاً إضافة إلى كونه أمراً شرعياً.

توضيح لفارق التفسيرين

ومما يوضح الفرق بين التفسيرين المثالان الاتيان:

اما التفسير الأول: وهو التردد في الأمر والتحير فيه والذي مبعثه، كما سبق، كثيراً ما يكون الريب وسوء الظن بالطرف الآخر واتهامه، فمثاله الواضح ان المسافر لو عرف السائق واطمئن إليه ولم يرتب فيه فانه لا يتردد في المسار المجهول الذي إتخذه للوصول إلى المقصد، كما لو خرج عن الشارع الرئيسي ودخل في طرق فرعية منوهاً إلى انها أقرب في الإيصال أو الأقل ازدحاماً.

على العكس مما لو ارتاب المسافر في أمر السائق وأساء الظن به وأتحمه في قرارة نفسه بانه قد يكون متعاوناً مع عصابة من اللصوص أو جماعة من الإرهابيين - كما كان يحدث في العراق كثيراً إذ كان العديد من سائقي التاكسي أو الباصات عملاء للإرهابيين أو متعاقدين معهم - فان المسافر لو ارتاب في أمره فانه إذا وجده يسلك طريقاً غير مألوفة فانه يتردد في صحة هذا المسار الجديد أو خطورته ويتحير وربما قاده ريبه وتردده إلى إيقاف السائق فوراً والنزول من السيارة أو إجباره على الرجوع أو الاستسلام له على وَجَل إذا لم يكن له خيار آخر.

واما التفسير الثاني: وهو التردد بالذهاب والإيهاب والذي مبعثه، كما سبق أيضاً، كثيراً ما يكون الريب، فمثاله الواضح: المعلم أو قائد الجيش أو الحاكم فان الشعب إذا ارتاب في أمر الحاكم أو ارتاب الضباط في أمر قائد الجيش فانهم لا ينفذون قراراته بسرعة بل يترددون عليه (وعلى غيره ممن يحتمل تأثيره في عملية اتخاذ القرار) لدراسة أسباب اتخاذ القرار بشن الهجوم من هذه النقطة بالذات أو في هذا التوقيت فيترددون عليه وعلى غيره لاستجلاء واقع الأمر أو ليتريث ولا يعجل لتكون لهم فسحة من الوقت أكثر ليكتشفوا أعماقه فاما ان تثبت عليه التهمة واما ان ترتفع.

وكذلك التلميذ لو ارتاب في إجابة المعلم، وانه لعله كان حينها سارح الذهن أو مشتت الانتباه فانهم يترددون عليه مرة أو أكثر ليستجلبوا واقع الحال (وهذا المعنى الثاني)، كما انهم يترددون ويتحيرون في إجابته السابقة وهل انها كانت صحيحة أو لا (وهذا المعنى الأول).

المحتملات في ((وَمَنْ تَرَدَّدَ فِي الرَّيْبِ وَطِئَتْهُ سَنَابِكُ الشَّيَاطِينِ))

ومن هذه البصيرة القرآنية ننتقل إلى كلام الأمير صلوات الله عليه فانه ينهل من القرآن الكريم وعنه يصدره، إذ يقول:

((وَمَنْ تَرَدَّدَ فِي الرَّيْبِ وَطِئَتْهُ سَنَابِكُ الشَّيَاطِينِ)) والمحتملات في كلام الأمير عليه السلام هي ثلاثة:

الأول: مَنْ تردد في الريب أي تردد إلى مظانّ الريب ومواطنه أي أكثر من التردد عليها فكأن حرف الجر أخذ بمعنى (إلى)

كما هو أحد معاني (في) نظير (فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ) فانها - حسب تفسير المغني^(١) - تعني إلى أفواههم. فتأمل

الثاني: انه يعني تردد بالذهاب والإياب وهو على حالة الريب وفي أجوائه.

الثالث: انه يعني تردد في الأمر في حالة الريب.

(١) مغني اللبيب، ج ١ ص ١٨٨.

وتحقيق هذه المعاني إضافة إلى بعض المعاني الأخرى والأظهر منها، لعله يأتي في البحث القادم بإذن الله تعالى.

من الحقائق المفتاحية حول الشك والريب

إن من أهم الحقائق الكبرى حول (الشك) والتي قد يغفل عنها الأكثر هي

الشك اما عقلي وعلمي أو نفسي وقلبي

ان الشك والتردد قد يكون عقلياً وقد يكون نفسياً أو قلبياً، بمعنى ان الشك تارة يكون مبعثه العقل والفكر أو المخ، وأخرى يكون مصدره القلب والعاطفة والنفس، ثم انه تارة يكون هذا منشأ ذاك وأخرى يكون العكس.

ولكي يتضح لنا ذلك أكثر علينا ان نستذكر ما يقارب ذلك مما ذكره العلماء في علم المنطق وعلم النفس من ان القوة المتوهمة كثيراً ما تهيمن على القوة المتعلقة، هيمنة عملية وان كان العقل والعلم والفكر يشير إلى خلاف ما تقود إليه القوة المتخيلة أو تصوّره وتحكّم به، فمثلاً: كثير من الناس يخافون من المبيت ليلاً في غرفة واحدة مظلمة مع جثمان ميت وهم بمفردهم ولكنهم لا يخافون من المبيت ليلاً مع شخص آخر حيّ من زوج أو قريب أو صديق، مع ان مقتضى القاعدة هو العكس فان الميت لا يُخاف منه إذ انه لا يستطيع التحرك والتحرك والإيذاء حتى قيد شعرة اما الحي فانه هو الذي لعله يصاب بلوثة جنون أو بنوبة عصبية فجأة فيهجم على الإنسان ليخنقه مثلاً.

وهنا نجد بوضوح ان العقل يحكم بان الميت لا يضر ولا يشكل خطراً لكن القلب أو العاطفة أو القوة المتوهمة تحكم على العكس من ذلك فإذا كان الإنسان قوي العقل هزَمَ المتوهمة وسيطر على الخوف بل لم يدعه يتسرّب إليه، على الضد مما لو كانت القوة المتوهمة فيه قوية وقلبه جباناً ونفسه مضطربة فان خوفه النفسي يهيمن على حكمه العقلي فتراه قد لا ينام حتى الصباح!

ومن ذلك نعرف ان الشك العقلي قد لا يكون منشؤه الفكر وضعف البراهين المؤيدة أو قوة البراهين المضادة بل يكون منشؤه الشك القلبي أو الوسوسة أو الجبن النفسي، وذلك احد وجوه تفسيرنا لكلام الإمام عليه السلام إذ يقول: ((الشكُّ عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ عَلَى التَّمَارِي وَالْهُوْلِ وَالْتَرَدُّ وَالْإِسْتِسْلَام)) فلعن المقصود من الشك المبني على شعب منها التردد هو الشك العقلي وانه مبني على التردد والشك النفسي، كما يمكن تفسير كلامه عليه السلام بالعكس من ذلك أي ان الشك النفسي مبني على التردد العقلي.

ضرورة تحليل سيكولوجية الفلاسفة

ومن ذلك نعرف اننا في مواجهة أي فيلسوف أو مفكر يطرح سلسلة من التشكيكات والشبهات، علينا ان نحلل شخصيته من الناحية السيكولوجية: فتارة تكون تشكيكاته نابعة من بحث عقلي موضوعي علمي فهذا الشك له قيمة معرفية — بدرجة أو أخرى قليلاً أو كثيراً ولو في الجملة — وتارة تكون تشكيكاته نابعة من وسوسة نفسية واضطراب سيكولوجي أو من عقدة نفسية أو من حسد شديد أو حقد أو غضب أو مرّكب نقص خطير، فهنا لا تكون لتشكيكاته أية قيمة علمية على الإطلاق إذ ما قيمة الشكوك التي لا تعدو كونها مرآة عن شخصية قلقة مضطربة غير مستقرة؟.

ولعل الذي يتتبع حياة الفلاسفة والمفكرين التشكيكيين يجد ان الكثير منهم أو البعض منهم على الأقل إنما يُنقَس

بتشكيكاته عن عُقْدٍ نفسية كامنة فيه وعن مركب نقص خطير، ولا يكون مصدر تشكيكاته التفكير العلمي الهادئ العقلاني بل مصدرها الاضطراب النفسي.. ومثل هذا الفيلسوف أو المفكر يستدعي ان نبحث له عن معالج نفسي ضليع خبير، وان نرثي لحاله، بدل ان نتأثر بتشكيكاته!

ألا ترى مثلاً لو ان وسواساً شديد الوسوسة في الطهارة والنجاسة أو جباناً شديد الخوف حتى من ظله، بدأ يفلسف لجبنه الشديد أو يبرهن على وجه وسوسته، ألا ترى اننا لا نغير بالأل لكلامه لأننا نعلم بانها محاولات يائسة لتبرير النقص والخلل والجبن والوسوسة وإلباس ذلك كله ثوباً علمياً كاذباً!

لمحة عن أفكار وحياة نيتشه الفيلسوف الشهير

والآن لتتوقف عند لمحات من حياة أحد أهم فلاسفة الغرب المعروفين بالعدمية والظلامية والتشكيك حتى في البديهيات لنجد البرهان على ان التشكيكات العقلية بل والبراهين العلمية - ظاهراً - إنما تنبع - في بعض الأفراد - من اضطراب نفسي ومركب نقص وعُقْدٍ في الحياة قد تكون قديمة جداً، وهذه الشخصية هي فريدريش نيتشه، وذلك في ضمن ثلاث محطات: مكانته وشخصيته، بعض آرائه وأحكامه، البواعث النفسية والعوامل السيكولوجية الكامنة خلف ذلك:

١ - شخصيته ومكانته

المحطة الأولى: (شخصيته): فقد كان من الفلاسفة القلائل الذين حظوا بشعبية كبيرة وكان من بين الأكثر تداولاً وشيوعاً بين القراء.

وكان لعمله تأثير عميق على الفلسفة الغربية وتاريخ الفكر الحديث.

ويُعدّ نيتشه من أهم فلاسفة أوروبا على الإطلاق حيث غدت آراؤه العديد من القيادات الفكرية.

ويُعدّ نيتشه مصدر إلهام للمدارس الوجودية وما بعد الحداثة في مجال الفلسفة والأدب في أغلب الأحيان. كما رُوِّج لأفكار رأى كثيرون أنها مع التيار اللاعقلاني والعدمية.

استخدمت بعض آرائه فيما بعد من قبل أيديولوجيي الفاشية، وتبنّت النازية أفكاره.

يعد نيتشه أول من درس الأخلاق دراسة تاريخية مفصلة. كما قدّم نيتشه تصوراً مهماً عن تشكل الوعي والضمير، فضلاً عن إشكالية الموت.

بعض أفكاره وآرائه

المحطة الثانية: (بعض أفكاره وآرائه)

أ- (المرأة) يقول نيتشه عن المرأة: (في كتابه (هكذا تكلم زرادشت): "لم تبلغ المرأة بعد ما يؤهلها للوفاء كصديقة، فما هي إلا هرة، وقد تكون عصفوراً، وإذا هي ارتقت أصبحت بقرة!!"^(١).

كما أردف: "إذا ذهبتي إلى المرأة فلا تنسِ السوط!".

وكان يرى أن المرأة ملكية ينبغي معاملتها كقطعة تباع!

(١) فريدريك نيتشه، هكذا تكلم زرادشت، مؤسسة هندايو للتعليم والثقافة، ترجمة: فليكس فارس، ص ٨٠.

فهذه إذن نظرة هذا الفيلسوف العظيم إلى المرأة!!، هذا الفيلسوف الذي كتب عنه أحدهم مقالاً تحت عنوان (الخالدون عشرة أعظمهم نيتشه)! في مجلة (ألفا بيتا) سبتمبر ٢٠١٤.

كما عبّر عن المرأة ب(فخ نصبته الطبيعة للرجل) وصب لعناته عليها!.

ب- (العدمية) ويقول نيتشه في كتابه (إرادة القوة) عن العدمية وهي مذهبه الفلسفي "كل معتقد، كل شيء يعتبر حقيقة، هو زائف بالضرورة لأنه ببساطة ليس هناك عالم حقيقي"^(١).

فبالنسبة له، تتطلب العدمية تبرؤ تاماً من كلفة القيم والمعاني المزيفة ويقول: "العدمية هي... ليست فقط الاعتقاد بأن كل شيء يستحق الموت والفناء، بل أن يضع الإنسان كنفه على المحراث، أن يدمّر" كما جاء في كتابه، (إرادة القوة) ونترك للقارئ الكريم تفسير النفسية المتطرفة بلا حدود التي تقف خلف هذا النمط من التفكير.

يرى نيتشه أن القوة الكاوية للنزعة العدمية قوية جداً ومطلقة، وتحت فحصها الصارم "تنكر القيم العليا ذاتها، حيث أن تفتقر إلى الهدف، وكلمة لماذا لا تلقى أية إجابة" (إرادة القوة)^(٢).

إذاً وحسب رأي نيتشه فإن مكارم الأخلاق، كحسن الخلق والتواضع ورحمة الأيتام والفقراء والحنان والعطف والغيرة والشجاعة والكرم وحسن الضيافة كلها قيم ومعاني مزيفة يجب علينا التبرؤ منها تماماً! وكذلك فإن الأمانة لا تعد فضيلة ولا الخيانة شراً ورذيلة، وكذلك الرشوة والسرقة والاختلاس وغير ذلك! وانظر إلى أي عالم يقودنا نيتشه!

وقد عرّف بعض المفكرين العدمية بقوله: (العدمية Nihilism هي الاعتقاد بأن كافة القيم والأخلاق ليس لها أي أساس أو قاعدة يمكن الرجوع إليها أو القياس على أساسها. وهي غالباً ما ترتبط بالتشاؤم المفرط والشك العميق بحقيقة الوجود. والعدمي الحقيقي هو الذي لا يؤمن بأي شيء، وليس عنده أي ولاء لأي مذهب، وهو يفتقر إلى الإيمان وحس الغاية أكثر من كونه يميل إلى التهديم وإسقاط القيم والمفاهيم. وبينما يدعي بعض الفلاسفة كونهم عدميين، إلا أن العدمية غالباً ما تعود في جذورها إلى الفيلسوف الألماني "فريدريك نيتشه" والذي قال أن التأثيرات الهدامة للعدمية ستدمر في النهاية كل المعتقدات الأخلاقية، والدينية، والميتافيزيقية، وتؤصل للأزمة الأعظم التي ستواجه الفكر البشري في التاريخ)^(٣).

و: (العدمية في الحقيقة، يمكن فهمها بطرق عدة مختلفة:

- العدمية السياسية، وهي مرتبطة بالاعتقاد بأن دمار كافة الأوامر السياسية والاجتماعية والدينية هو شرط لازم لأي تطور مستقبلي^(٤).

- العدمية الأخلاقية، وهي ترفض إمكانية وجود القيم الأخلاقية المطلقة. وفي المقابل، الخير والشر هما أمران مبهمان وضبابيان، والقيم التي تحاكيهما ما هي إلا نتاج الضغوط الاجتماعية والعاطفية، وليس شيء آخر.

(١) من موقع الحوار المتمدن، للكاتب إبراهيم جركس، ٢٠/١١/٢٠٠٩م.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) فلاحظ التعميم في الكلام، بدون ان يميّز ويفصل بين الأوامر السياسية أو الاجتماعية أو الدينية الصحيحة عن الفاسدة والعادلة عن الظالمة!!

- العدمية الوجودية، هي الفكرة التي تقول أن الحياة ليس لها أي قيمة أو معنى جوهري، وهذا هو المفهوم الأعم والأكثر استعمالاً للكلمة هذا اليوم^(١).

ان الصدق والوفاء والأمانة، تحاكي الخير، والكذب والخيانة والدجل والسرقة والاعتصاب تحاكي الشر، فهذه كلها برأيه ليست أموراً واقعية في حد ذاتها بل هي نتاج الضغوط الاجتماعية والأخلاقية! فلا قيمة موضوعية للأخلاق أبداً - وقد فصلنا في كتاب (نقد الهرمينوطيقا) وكتاب (نسبية النصوص والمعرفة) الكلام حول هذه الآراء.

(العدمية في الفرنسية/Nihilisme في الانكليزية/Nihilism وهو مشتق من اللفظ اللاتيني(Nihil) ومعناه لا شيء).

العدمية ثلاثة اقسام: فلسفية، وأخلاقية، وسياسية.

١- اما العدمية الفلسفية (Nihilisme Philosophique) فهي مطلقة أو نقدية. الاولى تتميز بإنكار وجود كل شيء، والثانية تتميز بإنكار قدرة العقل على الوصول الى الحقيقة. وهي في كلا الحالين مرادفة للريبة (Scepticisme)

٢- و اما العدمية الأخلاقية (Nihilisme moral) فهي مذهب نظري او نزعة فكرية، فاذا كانت مذهبا نظريا دلت على إنكار القيم الاخلاقية وابطال مراتبها. واذا كانت نزعة فكرية، دلت على خلو العقل من تصور هذه القيم^(٢).

ج- رأيه عن (الله تعالى)

واما عن الله تعالى فلاحظ ما كتبه في كتابه: (هكذا تكلم زرادشت) فانه (يبدأ الكتاب بقصة زرادشت " نسبة إلى الحكيم الإيراني القديم " الذي نزل من محرابه في الجبل بعد سنوات من التأمل ليدعو الناس إلى الإنسان الأعلى وهي الرؤية المستقبلية للإنسان المنحدر من الإنسان الحالي وهي رؤية أخلاقية وليست جسمانية حيث الإنسان الأعلى هو إنسان قوي التفكير والمبدأ والجسم.. إنسان محارب، ذكي، والأهم شجاع ومخاطر.

يلتقي زرادشت بعدها بعجوز يصلي ويدعو الله فيستغرب ويقول: "أيعقل أن هذا الرجل العجوز لم يعلم أن الله مات وأن جميع الإلهة ماتت؟! "^(٣).

وقبل ان نتقل للمحطة الثالثة لنكتشف سر آراءه المتطرفة التشكيكية والعدمية والظلامية هذه، نشير إشارة سريعة إلى انه لا يُعلم مدى موثوقية نقله هذه الحادثة عن زرادشت.. وعلى فرض صحتها فهنا مناقشة أساسية وهي: ماذا يقصد نيتشه (وزرادشت أيضاً إذا كان المنقول عنه صحيحاً) من (ان الله مات)؟ هل يقصد المعنى الفلسفي؟ أو المعنى العربي العوامي؟ هل يقصد المعنى الحقيقي أو المجازي؟ وعلى كل التقادير فكلامه غير علمي ولا موضوعي بل هو مجرد شعار أجوف لعله يستهوي ضعاف النفوس إذ نقول:

أولاً: إذا كان المقصود هو المعنى الفلسفي (الله) فالمعنى الفلسفي (الله) هو (واجب الوجود) وواجب الوجود لا يعقل ان

(١) من موقع الحوار المتمدن، للكاتب إبراهيم جركس، ٢٠/١١/٢٠٠٩م.

(٢) جميل صليبا، المعجم الفلسفي، الناشر: الشركة العالمية للكتاب، ج ٢ ص ٦٦.

(٣) من موقع ويكيبيديا (فريدريش نيتشه).

يموت وإلا لكان ممكن الوجود هذا خلف، أي ان نيتشه تصور ممكن الوجود وسمّاه إلهاً وآلهة ثم حكم عليه بانه مات! والله الذي يعتقد به الموحد هو واجب الوجود، فيحتاج نفي وجوده إلى برهان واما شعار (مات) فهو متناقض مع مفهوم الله وواجب الوجود.

ثانياً: إذا كان المقصود ان الله والآلهة التي كانت في أذهاننا قد ماتت واننا تطوّرنا ولم نعد نعتقد بها، فهذا مصادرة محضة إذ لا يكون الموت الذهني لمفهوم أو حقيقةً دليلاً ومرآة على الموت الخارجي؛ ألا ترى ان من السخف ان يقول شخصاً مهما كان عالماً أو مفكراً بان وجود الأشعة الكهرومغناطيسية قد ماتت في أذهاننا إذن فهي ليست موجودة في الخارج!

ثالثاً: نسأله: عندما حكم بموت الإله أو الآلهة فهل انه تجوّل في أنحاء العالم وفي المنظومة الشمسية والكواكب كزهرة وعطارد وزحل وبلوتون ونبتون وفي خارج المنظومة الشمسية في أطراف مجرة درب التبانة ثم خارجها، فشاهد هناك إلهاً أو آلهة ثم شاهد انه قد مات! ان من لا يحيط بجزء بسيط من العالم كيف يدعي دعوى عظيمة كهذه بدون برهان!

د- ه - النزعة الفردية والقومية

يعد نيتشه من أعمدة النزعة الفردية الأوروبية حيث أعطى أهمية كبيرة للفرد؛ واعتبر أن المجتمع موجود ليقدم وينتج أفراداً مميزين وأبطالاً وعباقرة!، فالمجتمع كله والناس كلهم لا قيمة لهم إلا ليقدموا الأبطال والعباقرة! ولكنه ميّز بين الشعوب ولم يعطها الأحقية أو المقدرتها نفسها حيث فضل الشعب الألماني على كل شعوب أوروبا! وأحط الشعوب الأوروبية برأيه هي الإنكليز حيث أثارت الديمقراطية الإنكليزية واتساع الحريات الشخصية والانفتاح الأخلاقي اشتمزازه، واعتبرها دلائل افتقار للبطولة).

و- القوة، لا الأخلاق!

(وأن النمط الأخلاقي الصائب هو النمط الإغريقي والذي كان يمجّد القوة والفن ويستخف بالرقّة والنعمّة وطيبة القلب). (يقول زرادشت: "يجب ان تحبّ السّلم كوسيلة لحرب جديدة، وتحبّ السّلم القصير أكثر من الطويل... لقد صنعت الحرب والشجاعة عظام الأمور أكثر ممّا صنعتها محبّة القريب")^(١).

(وعلى ذلك يكون شعاره "الحياة الخطرة". ولمّا كانت غايته الفوز فإنّه يرفض كلّ شفقة على المساكين، ولما كان يلخّص الإنسانية في شخصه فإنه يسودها وهو مطمئن الضمير، ويجد في الفوز غبطته العظمى. وأخيراً، يثبت مصيره إلى الأبد، بقبوله أن يعود فيحيا حياة البطولة هذه إلى غير نهاية، وفقاً لنظرية "العود الأبدي" (Recurrence Eternal)^(٢))

الخلفية السيكولوجية المأساوية لأفكار نيتشه المتطرفة

الخطة الثالثة:

وعندما ندرس حياة نيتشه نكتشف السبب الأعظم وراء تطرفه الغريب ضد المرأة وضد الإله بشكل مطلق وضد القيم الأخلاقية والسر الكامن وراء فلسفته العدمية ونرى بوضوح ان خط سيره العاطفي - المأساوي هو الذي انتج خط سيره

(١) الدكتور كميل الحاج، الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي، مكتبة لبنان ناشرون، ص ٦١٧.

(٢) المصدر نفسه: ص ٦١٨.

الفكري التشكيكي الظلامي العدمي.. وانه كان يعاني من اضطرابات نفسية عميقة متجذرة، ومن كبت شديد ومركب نقص عميق، ومن صدمات عاطفية قاسية جداً.. وكل ذلك هو الذي قاده إلى اليأس والاحباط والرؤية التشاؤمية والظلامية لكل شيء... فلنقرأ بعض ما جرى له طوال حياته.

١- كانت علاقة نيتشه بأخته قوية وكان يحبها حباً كبيراً لذا تألم كثيراً عندما تزوجت برجل لا تحبه وسافرت لتقييم في مستعمرة اشتراكية في الأوروغواي.

٢- كما أنه وقع في الحب عدة مرات لكنه فشل بسبب عينيته الحادتين ونظراته المخيفة برأي الفتيات! لذا اتسمت حياته بالكآبة حتى نهايتها.

٣- أحب فتاه بروسية وفارقتة وهي تلميذته لوسالوميه بعد رفضها له وزواجها بتشارلز اندرياس. وقبّل الأرض من تحت قدميها لكي تقبل به لكنها رفضته؛ فاستهام بها وقادته إلى الجنون.

٤- صاحب نيتشه الجهد سواء كان جسدياً أو عقلياً وكانت حياته حياة استثنائية في مصارعة الألم والصداع وآلام الرأس والاستفراغ نتيجة إلى مرض السفلس الذي التقطه من بيت دعارة في كولون.

ومن الواضح التأثيرات الرهيبة لمثل هذا المرض الخطير والالم والصداع الدائم والاستفراغ المستمر، على طريقة تفكير الإنسان وتحوله إلى ساخط على كل شيء مُحَبَط من كل شيء ومتشائم من كل شيء.

٥- في عام ١٨٨٩ انهار وهاجم حصاناً وأثار جدلاً في شوارع تورين عاد إلى مدرسته الداخلية ورقص عارياً!

٦- كما انه فكر في قتل القيصر وكان يظن نفسه يسوع ونابليون وبوذا والاسكندر المقدوني وفكتور ملك إيطاليا، وما بالك بمن يعتقد عن نفسه ذلك؟ وهل تجد لأفكاره الفلسفية العدمية الظلامية حينئذٍ قيمة؟

ونتيجة لذلك كله أخذ مكبلاً في قطار ونُقل إلى ألمانيا حيث أُودع في ملجأ لكن أمه وأخته أخرجتاه واعتنيتا به حتى توفي بعد ١١ سنة في عمر ٥٦ سنة).

٧- إضافة إلى ذلك كله كان يعاني من ضعف البصر وكانت أمه أرملة كما انه وقع عن سهوة حصانه مما دفع بقائد فرقته أن يعفيه من الخدمة بعد إصابته ولكن نيتشه ظل طول عمره متأثراً بالحياة العسكرية والأخلاق الإسبارية التي عرفها في الجيش.

تحليل بعض الفلاسفة والمفكرين لنفسية نيتشه

ولنقرأ بعض كلمات العلماء والباحثين عن سيكولوجية نيتشه:

٨- (كان نيتشه يغار من المسيح، يغار إلى حد الجنون... وكان يعود إلى نيتشه وحده أن يعيد اكتشاف مسيح حقيقي وأن يبعثه من جديد من كفته... ولكن بدلاً من أن ينضوي نيتشه تحت لواء من يتفوق تعليمه على تعليمه اعتقد بأنه يكبر إذا ما جابهه)^(١) أندريه جيد.

(وهذا هو نيتشه وإنسانيته الأعلى، الذي هو قوة متكبرة يسوقها هذيانها المتعجرف إلى القول بعبودية الجنس البشري

(١) معجم الفلاسفة/جورج طرابيشي/مادة: نيتشه/دار الطليعة، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة، يوليو ٢٠٠٦ م. ص ٦٧٩.

وهوانه. لصالح من؟ لصالح الإنسان الأعلى، الذي هو... مجنون بائس يصرخ ويستهل بين أيدي المرضين، أندريه سواريس^(١) و(أرجح الظن أن نيتشه لم يعرف صفة مرضه، لكنه كان مدركاً تماماً لما هو مدين له به... فمن خاصة هذا المرض أن يستحدث ثملاً تنداح فيه أمواج من السعادة والقدرة وتنثشي فيه قوى الحياة ذاتياً... وقبل أن يغرق ضحيته في الليل العقلي ويقتله بمحضه تجارب وهمية من القدرة واليسر والوحي والإشراق!!... ويقتاده إلى اعتبار نفسه أداة الإله ووعاء النعمة بل إلهاً متجسداً. توماس مان)^(٢)

و(من الممكن أن نجد لدى نيتشه بصدد كل حكم نقيضه. فلئان له في الأشياء طراً رأيين. وقد أمكن لمعظم الأطراف أن تختبئ خلف سلطته: الملحدون والمؤمنون، المحافظون والثوريون، الاشتراكيون والفرديون، العلماء المنهجيون والحالمون، السياسيون واللاسياسيون، أحرار الفكر والمتعصبون. كارل ياسبرز)^(٣)

(بعدها أصيب بعدة أمراض أوهنته سنين عديدة، ثم اضطره إلى الانقطاع عن التدريس، فاعتزل منصبه في عام ١٨٧٩. وبعد عشر سنين، انتهى به المرض إلى الشلل الكلبي والجنون. فظل على هذه الحال عشر سنين، حتى توفي عام ١٩٠٠ م. وقد قالت أخته: إنَّ السبب الرئيسي في مرضه الأخير، كان إدمانه على الكلورال الذي استعمله بكثرة استجابة للنوم)^(٤).

المحصلة

إذا نحن أمام شخصية مأساوية كانت حياتها سلسلة من المآسي والسقطات والزلات وكانت هذه الشخصية تعاني من مرض السفلس وآلام الرأس الدائمة والاستفراغ وكان مطعوناً في كرامته بأشد الحالات والصور عندما رفضته تلميذته رغم انه قبل الأرض بين قدميها كما رفضته كافة من تقدم للزواج منهن.. وكان يعاني من مركب نقص عنيف وشديد كما ساقه اضطراب شخصيته الشديدة إلى ان يظن نفسه يسوع المسيح تارة وبوذا مرة ونابليون أو الاسكندر أو فيكتور تارات أخرى... ومن الواضح بعد كل ذلك ان كافة أحكامه ضد المرأة وضد الإله وضد القيم الأخلاقية وغير ذلك، لا تمتلك أية قيمة معرفية على الإطلاق.. أو على الأقل، ومن منظر علم النفس، فان تلك العوامل المأساوية في حياته تصلح تفسيراً معقولاً للسبب في التطرف في آرائه ولتشكيكه في كل القيم بل ثورته الشديدة ضدها، وذلك هو بالضبط ما بدأنا به تفسيرنا لكلام الإمام عليه السلام ((الشكُّ على أربعِ شعبٍ على التَّماريِ وَهُوْلٍ وَالتَّرْدُّدِ وَالِاسْتِسْلامِ:

فَمَنْ جَعَلَ الْمِرَاءَ دَيْدَنًا لَمْ يُصْبِحْ لَيْلُهُ

وَمَنْ هَالَهُ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ نَكَصَ عَلَى عَقْبِيهِ

وَمَنْ تَرَدَّدَ فِي الرَّيْبِ وَطَعَّتْهُ سَنَابِكُ الشَّيَاطِينِ

وَمَنْ اسْتَسْلَمَ لِهَلَكَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ هَلَكَ فِيهِمَا)).

(١) المصدر نفسه.

(٢) معجم الفلاسفة/جورج طرابيشي/مادة: نيتشه/دار الطليعة، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة، يوليو ٢٠٠٦ م. ص ٦٧٩ - ٦٨٠.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) الدكتور كميل الحاج، الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي، مكتبة لبنان ناشرون، ص ٦١٦.

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين